3 ــ الالفيــة ، وجمع الجوامــع

كان نظم الشعر سهلا على ابن مالك ، وكان ابن فودى شاعرا ولذلك فقد استطاع كلاهما التأليف فى علوم العربية نظما ، ومن اهم ما الف ابن مــالك منظومته فى النحو والصرف المسماة بالالفية ، لانها مكونة من الف بيت وكان قد سبقه الى نظم النحو فى الف بيت استاذه ابن معطي .

وقد اهتم الشرّاح بالفية ابن مالك ، واحتلّت شروحها مكانة كبيرة فى العصور المتأخرة للحضارة الاسلامية ، كما ان اكبر معهد للثقافة العربية الاسلامية كان يشترط على طلبته حفظ هذه الالفية .

جَمْع الجوامع لابن فودي محاولة نحوية ضخمة تكونت من اربعة آلاف ومائتين وخمسة واربعين بيتاً ، والفرق العددي الكبير بين الالفية والجمع كان كفيلا بلَفْت انظار الباحثين ، الى منظومة ابن فودى لكني لا أجد من تنــاول هذا العمل الضخــم او من رصده فى السلسلة التطورية للنحو العربي .

والصفحات التالية موازنة بين ابن مالك وابن فودى فى افتتاحيتي المنظومتين وفى اول موضوع يقرؤه القارىء فيهما ، وهو اجزاء الكلام .

4 ــ الافتتاحية وما تشير اليه من اخلاق وافكــار فى المنهج :

قال ابن مالك :

قــال محمد هــو ابن مالــك
احمد ربي اللــه خير مالــك
مصليا على النبي المصطفى
وآلــه المستكملين الشرفــا

وقال ابن فودى :

الحمد للــه علــى تسهيــل
فتح الاعادي المغني النبيــل
ثــم صلاته مــع الســــلام
على نظــام جملــة الانــام
ذى الكلم الوجائز الجوامــع
وصحبــه غيوثنــا الهوامــع

بلاحظ ان ابن مالك افتتح الفيته بتقديم نفسه ، مقدما هذا على حمد الله ، واختار لتقديم نفسه الفاظا تضفى على اسمه رهبة وهيبة ، لانه يذكر القارىء بانه (ابن مالك) ، والله هو (المالك)

اما ابن فودى فلم يقدم نفسه على الاطلاق ، وافتتح كتابه بالحمد .

وعلى حين يذكر ابن مالك حمد الله ، والصلاة على النبى فى جمل ثانوية ، وفى صورة الحال ، نرى ابن فودى يحمد الله سبحانه وتعالى بجملة اسميــة اصلية تفيد التأكيد والتقوية .

وبقية افتتاحية الالفية ترينا أن ابن مالك يحل ألفيته محلا عاليا ، ويفضلها على الفية استــاذه ، فينسى فى مجال الفخر أن يحمد الله من أجل ما قدمه فيها ، وكأن حمد الله كان ضرورة وجب اتباعها فى افتتاح العمل فقط .

اما ابن فودى فقــد اخذ حمد الله لديــه معنى الشكر ، لانه يقرن هذا الحمد بالاسباب الداعية اليه ، وتبدو فى هذه الاسباب امانته فى ذكر اسماء الكتب التى افاد منها فى كتابه ، وتواضعه الشديد امام من سبقه من العلماء ، وان كان لا ينسى ان يفتخر بما سطّره فى كتابه ، لكن الفخر هنا اتى فى مكانه الصحيح ، لانه افتخر بعد ان نسب الفضل لاهله ، ويمكن اعتبار الفخر لدى ابن فودى من باب (واما بنعمة ربك فحدث) .

وصلاة ابن فودى على النبى صلى الله عليــه وسلّم تمتْ بطريقةٍ فيها طرافة وذكاء شديدان ــ وان كنت أشكّ ان ابن فودى كان مدركاً للحقيقة التالية ــ

محمد صلى الله عليه وسلم ـ كما قال ابن فودى ـ (نظام جملة الانام) .

وفى هذه العبارة لفظتان فنيتان تستخدمان الآن فى الدراسات اللغوية ويتوقف على ادراك حقيقتهما فهم التحليل النحوي للغة ما ، تلكما اللفظتان هما (نظام) وهو مجموعة النماذج النحوية للجمل، و (جملة) وهى تلك الطريقة المعينة من رصف الكلمات فى (نموذج) هو بدوره فرد من افراد النظام ولا يتصور نحو لغة من اللغات الا اذا تصور مجموع نماذج جُمَلها أو نظامها .

كما ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان (قد اوتى جوامع الكلم) . وهذا امر يلفت نظر الدارس لنحو اللغة العربية ، فهذه الصفة من صفات الرسول مناسبة لموضوع هذا الكتاب كما ان ابن فودى استخدمها فى اختيار عنوان كتابه .

واذا كان ابن مالك قد حكم لالفيته بانها تفوق الفية استاذه ، فان ابن فودى يصرح بانه احتذى منوال (همع الهوامع) بشرح جمع الجوامع للعلامة السيوطى الذى كان له سمعة كبيرة بين علماء افريقيا الغربية .

والصفة التى وصف بها ابن فودى كتابه ، والتى بها تميّز عن كتاب استاذه ، ليست صفة التفوق او الغلبة التى نشهدها لدى ابن مالك ، بل هى صفة اقرب ما تكون الى وصف المنهج الذي اتبعه وبيان الفرق بين كتابه وكتاب استاذه ، فقد كان ـ رغم اقتدائه بالسيوطى ـ يزيد احيانا لتكملة نقص فات السيوطى ان يستوفيه ، وينقص احيانا ربما تجنبا للاطالة والحشو ، كما كان لا يلتزم الترتيب الذى كان عليه كتاب السيوطى ، بل كان يقدم بعض الابواب ، ويؤخر اخرى لمقتضىً دعا الى ذلك ، يقول فى ذلك :

وربما انقص او أزيد
لعلة ونيل ما يفيد

وربما قدمت او اخرت
لمقتضىً داعٍ الى ما اخترت

وحين نوه ابن مالك باسبقية استاذه (ابن معطى) لم ينس أن يقدم نفسه عليه وهو يطلب من الله منحهما الهبات والنعم الوافرة . يقول :

وهو بسبق حائز تفضيلا
مستوجب ثنائي الجميلا
والله يقضي بهبات وافرة
لى وله فى درجات الآخرة

اما ابن فودى فانه ما طلب لنفسه ولا لاستاذه اي نوع من الجزاء والثواب ، بل طلب من الله أن يديم نفع الطالبين بكتابه وان يقرب احكامه دوما الى عقولهم . يقول فى ذلك :

واسأل النفع على الدوام
به مع التقريب للافهام

واخيرا اذا كان قد فات ابن مالك ان يتحدث عن اقسام الفيته فان ابن فودى لم يفته هذا ، وذكر ان كتابه :

منحصر يأتي على مقدمة
وسبعة من كتب وخاتمة

فافتتاحية هذين العملين تقفنا على عالِمين من طرازين مختلفين ، عالِم فخور بنفسه ، يقدمها على غيرها ، فاذا ذَكَر الآخرين ذَكَرهم بسرعة ، كما يتوقع ان يثاب على عمله ، ذلكم هو ابن مالك . وعالم آخر متواضع ، ينسى نفسه فى حين يبسط ذكر اياديهاتذته ، ومصادر معلوماته ، كما لا يطلب الجزاء على عمله ، وانما يبغي النفع الدائم به ، ذلكم هو ابن فودى .

ومن الناحية المنهجية الاخظ فى ابن مالك تسرعا فى تقييم كتابه ، ونسيانا لتقديم اجزائه ، على حين نشهد فى ابن فودى وصفاً لمنهجه فى التاليف ، وحرصا على ذكر الاقسام التى يتألف منها الكتاب .